الفصل الخامس عشر

الحياة في نجران

لم نكن على استعداد للشروع في المرحلة التالية لرحلتنا، برغم أن إمدادات البترول قد وصلت، ذلك لأننا نحتاج إلى تحضيرات واسعة، خاصة إمكانية الحصول على المرشدين الضرورين واختيار الموظفين وتأمين الجمال لمثل هذه الحملة الطويلة. نحتاج إلى الجمال لنقل كميات الوقود الضخمة ومؤن الطعام إلخ، تولى العناية بهذه الأمور عامر الذي كان متحمساً لكل برامج الرحلة، وكان إلى جانب ذلك، على اتصال يومي باللاسلكي مع الرياض، ذلك لإصرار الملك على تأكيد عدم حدوث أية عقبات تقود إلى الفشل ويتأتى ذلك عن طريق تأمين اكتمال كل الاستعدادات. تحركت الحملة من عند قصر أبالسعود في اليوم الرابع والعشرين من يوليو، وتوفر لي بذلك من الوقت ما يزيد عن الأسبوعين لمواصلة استكشافاتي لنجران وما حولها.

عدت من الأخدود يوم الخميس (التاسع من يوليو) وقضيت الصباح كله أتجوّل في السوق والذي كان حيوياً أكثر في هذا اليوم مقارنة بسوق الإثنين، ويعزى ذلك لأنه من عادة الناس هنا، كما هي عادتهم في أية مكان آخر، أن تكون عطلة نهاية الأسبوع يوم الجمعة -اليوم الديني للمسلم ويوم عطلته-. يمهد سوق الخميس فرص العرض الممتازة لإعداد المخازن الضرورية للبضائع ولجذب الزبائن المرغوب فيهم. يبدو السوق في هذا الخميس بالذات، وكأن كل سكان نجران قد تقاطروا إليه في هذا الفضاء العريض الذي يعج بأنشطة السوق المختلفة. جلست أتبادل الحديث مع

صاحب أحد المتاجر، ويدعى قاروتي وهو تاجر مقيم دائم هنا ولكنه في الأصل من أبناء الجوف من الزيديين. كان لديه مخزون كبير ومتنوع من البضاعة المعروضة للبيع، ويبدو أنه كان موفقاً في عمله، ذلك لأن متجره لم يخلو قط من الزبائن. كان لديه ما يكفي من البضائع التي تباع بالقطاعي، وكانت كلها مصنوعة في اليابان إلاَّ من لفة واحدة لقماش كانت مصنوعة في مانشستر، عرضها عليَّ بكل فخر كما عرضها على زبائنه المعدمين دون نجاح في بيعها ، وهو يعرضها هنا الآن بسعر القطاعي بسعر ٨ هندازز أو ثماني ياردات للريال الواحد (قل سدس) يعني ٣ بنسات لليادرة الواحدة.

تضمنت مشترياتي زجاجة فازلين ومرهم عطري من صناعة شرقية وقوي الرائحة، كلاهما لعلاج لسعة الشمس عند الضرورة، إلى جانب زوج حذاء (بنعل من المطاط)، ونوعين من التبغ. تضمن مخزون التاجر علب الكبريت (صناعة يابانية وروسية)، والصابون (صناعة مصرية وفرنسية من مرسيليا) والبن وقشور البن من اليمن، والحبوب من الإنتاج المحلي، إلى جانب كمية من أشياء أخرى متضمنة أدوات معدنية (مثل خناجر الزينة.. إلخ) التي جلبت من صنعاء ومواد فخارية جلبت من صعدة كنت أرغب في بعض الجنبيات (خناجر) إلاَّ أن النوعية التي عرضها عليَّ بعد أيام في مقر إقامتي كانت كلها متدنية ولا تستحق أن تقتنى. كانت علب الكبريت، بالمناسبة، اليابانية والروسية الصنع، قد خصصت للسوق الشرقي، غير أن كلاهما كان يحمل رقعة تعريف إنجليزية وأسماء إنجليزية، مثل ميدال وسبورت بالتتالي.

يبدو أن نسبة كبيرة من زوار السوق هم من النسوة، ومعظمهن طاعنات في السن عجائز شمطاوات، ملحاحات في البيع كما أنهن متسخات ويرتدين أسمالاً

مهلهلة. جلس معظمهن على الأرض جاثمات فوق حطب الوقود، أو فوق أوراق النخيل (لأجل درس الحبوب) أو فوق حصائر يعرض عليها البرسيم (وهو علف للجمال) أو يعرض عليها بلح لم ينضج بعد، أو توضع عليها أطباق صغيرة من حبوب أو توابل، وعشرات من النثريات التي من المحتمل أن تفي بالاحتياجات المتواضعة لزبائنهن. وبالمقابل مع النساء كبيرات السن، فهناك سيدات شابات في أوج شبابهن وجمالهن –وكان بعضهن غاية في الجمال وكلهن يرتدين أجمل الأزياء. لا تغطي الفتيات غير المتزوجات رؤسهن، وأعتقد أن شعورهن الطويلة المستقيمة ذات التموج الطبيعي والمدهَّنة، واللامعة، كانت جذابة. يرتدي العديد من النسوة المتزوجات الشابات خصلات إضافية من نسيج صوفي أسود يزين رؤسهن، ويبدو أن النسوة كبيرات السن هن اللاتي يتميزن بارتداء الموصلين الأسود، وهو شبيه بغطاء الرأس المثبت المنتشر في نجد.

كان معظم النسوة الشابات رشيقات الأجسام إلى حد بعيد رشيقات كذلك في كل حركاتهن، علماً بأن الأغلبية منهن لم تكن جميلات التقاطيع. كانت قاماتهن بصفة عامة جيدة. كانت أعناق جلابيبهن الداخلية مفتوحة وبلا أزرار بصفة عامة وقد شقت إلى أسفل كثيراً لتتيسر الرضاعة السريعة والسهلة للرضع اللاتي كن يحملن أولادهن حول خصورهن. كان مشهد السوق نابضاً بالحياة ومثيراً للانتباه، وقد ساعد هذا بالتأكيد، إكساب المرء فكرة عن المستوى المتدني فوق العادي للحياة في هذه الأجزاء دون إلحاق أي أذى يصيب سعادة هؤلاء القوم.

في الخميس التالي ظهر إعلان في السوق عن طريق المنادي، بما يفيد أنه لن يسمح لأي مالك لمزارع النخيل أن يبدأ الحصاد إلاَّ بعد فحصها وتقييمها فيما يخص الزكاة –كان لهذا الإعلان وقع في نفسي، رحبت به كثيراً ذلك لأنه يعني

أنه من الآن فصاعداً سيكون هنالك تمر طازج مع كل وجبة طعام. حضر شقيق الأمير، بالمناسبة، واسمه محمد بن نشمي، والذي كان أميراً فرعياً على بدر في هذا الوقت، إلى نجران في مهمة جمع الزكاة من البدو (خاصة رسم الجمال) وقد تحصل على مبلغ ١٦٠٠ ريال لإيداعها لخزينة الدولة. قابلت أيضاً أحد زعماء المكارمة في آخر خميس في السوق واسمه سيد عبدالله، والذي كان حينها يقيم في خشيوة، وهي مركز طائفته، والتي سأتحدث عنها فيما بعد.

كانت هذه الأسواق أماكن يتردد عليها كبار زعماء القبائل في يام، وقد قابلت من بينهم يحيى بن نصيب -كانت آخر مقابلة لي معه في الحصينية- وقد عاد للتو من حملة جمع الزكاة من حبونا ويصحبه في ذلك ابن نشمي، والذي عاد حديثاً أيضاً وفي صحبته ماريا (الوضيحي) صغيرة أهداها لي. وقد أرسلتها في الوقت المناسب إلى معرضي للحيوانات البرية بجدة، وقد أصبحت الماريا أليفة ومستأنسة هناك إلاَّ أنها ماتت فجأة. علمت أنها قد تعرضت للعض من جانب أحد أرانبي الأوروبية والذي كان قد تسلل من قفصه، والمرجح أن لدغة ثعبان قد تكون هي السبب. زارني يحيى زيارة خاصة في الصباح وقبل مني هدية له عبارة عن عشرة ريالات وهو يلهج بالشكر، غير أنني عندما قابلت شقيقه جابر، في السوق كانت نظراته لي يشوبها كثير من اللوم وكأنه كلب السبنيلي المجروح. ذلك لأنني لم أكافئه بعد على خدماته التي كانت قيمة جداً غير أنني سأفعل ذلك عندما تنتهي هذه الخدمات.

خرجت معه، في هذه الأثناء، وذلك عصر اليوم التاسع من يوليو لزيارة وادي برّان الذي يدخل إلى وادي نجران من جهة الشمال، في مقابل قمم أبي ورعم. كان معظم سكان مزارع النخيل القليلة المبعثرة من المواحد (قسم آل برّان)

مع قليل من المكارمة (الإسماعيليين) والذين استقروا في هذا الموقع لأول مرة عندما وفدوا أصلاً من نجران. تشغل القرية سهلاً متوسطاً بيضاوي الشكل ينمو عليه نبات الحلفا وبعض شجيرات الشار وجانب لغطاء نباتي نموذجي آخر والذي قد نما نتيجة التقاء مسايل ثلاثة جميلة محاطة بالصخور هابطة من عند سلسلة جرانيتية تكوِّن الجانب الأيسر من وادي نجران. تشمخ واحدة من القلعات التابعة للمكارمة بجمال، فوق صخرة منعزلة في موقع الانبعاج، بينما تقف قلعة أخرى -كلاهما مدمر- وعلى مسافة فوق الصخور من ناحية الغرب.

توجد على مستوى السهل أربع مزارع نخيل صغيرة مزدهرة بشكل مدهش وبداخلها قصور مبعثرة، هي بالاسم، خضيراء، جبجبه، قردة وغيلة. يوجد في أولاها نقطة للشرطة حيث دعينا إلى شراب القهوة والشاي وذلك قبل مواصلة السير لأجل القيام بدراسة المسيل الرئيس المركزي. وصلنا إلى مقبرة للقدماء، على بعد مقبرة قليلة وراء الواحة على انبعاج في المسيل، وكانت هذه المقبرة تحتوي على قبور عالية بشكل غير طبيعي، كما كان يعلوها مجموعة قبور أخرى. تعزى هذه القبور محلياً إلى قبيلة بني هلال القديمة وهي بلا شك لا تبدو شبيهة بمقابر المسلمين العادية، أو بمقابر العرب.

تحول المسيل إلى ما وراء هذه إلى مجموعة من شلالات جذابة والتي لا بد وأن تكون شديدة الجمال في مواسم السيول. يوجد الماء حتى في هذا الوقت وبكميات كافية داخل التجاويف وفي البرك التي تنتشر بين الصخور والجلاميد وقد وجدنا على الكثير منها بعض أسماء للمكارمة السابقين وبعض التواريخ وبعض التضرعات الدينية وبعض الجمل العاطفية. يضيق المسيل في أثناء جريانه ناحية الشمال الغربي إلى ممر يقال إنه يقود إلى قرية تسمى غثمة تقع على بعد ٩ أو ١٠ أميال.

يجري الوادي (أو المسيل) ناحية الشرق إلى ممر آخر يسمى عقبة وشيقر عبر التلال، وهو طريق مطروق لمن يرغبون الطريق الأقصر من نجران إلى ظهران، وفي الحقيقة فإن هذا الطريق هو الوحيد المباشر بين الموقعين وهو مناسب للحمير والجمال، والتي لا يصلح لها الطريق الذي يمر بغثمة. كانت إحدى البرك، عند منتصف المسافة، على هذا الطريق، متميزة بأن ماؤها لا ينضب على مدار العام ما عدا في مواسم القحط.

وجدت من بين ضيوف الأمير، بعد غروب الشمس وعودتي للعشاء مع الأمير، ناصر بن شماخ النهدي. لقد قابلت ناصر هذا في الحصينية حينما كان يهيء نفسه للذهاب إلى خب لتحصيل الديون ويبدو أنه قد نجح في مهمته بحكم سرعة عودته (التي رحبت بها) إلى نجران. كما قابلت أيضاً أحد أتباع قبيلة الصيعر بحضرموت وذلك أثناء ساعات الصباح في السوق، وكان قد جاء إلى المكان ومعه قافلة ملح جلبه من شبوة، غير أنه لم يبدو لي وكأنه يرغب أن يدعوني لزيارة موطنه. كانت كل الأمور في قبضة الأمير، على كل حال، ولم يكن هنالك ضرورة للانزعاج. لقد ورد الاقتراح بانطلاقة الرحلة خلال أسبوع، غير أن ذلك يبدو تقديراً متفائلاً جداً.

كان تصورنا أن تضم قافلتنا حوالي ٢٠ جملاً بالإضافة إلى سيارتين. لقد جلب محمد النشمي معه حجراً عليه بعض النقوش وذلك من حبونا، كانت النقوش على الجانبين -تحتوي كلها على ١٤ حرفاً فقط-. حضر الأمير والقاضي ومجموعة كبيرة في معيتهما إلى غرفتي عند المساء للاستماع إلى الأخبار، غير أن التداخلات والشوشرة الكهربائية الجوية كانت مثبطة للنتيجة. كان الموقف في فلسطين في هذه الفترة قد دخل إلى مرحلة خطيرة وكان الكل يرغب ويتطلّع

لمعرفة ما يحدث هناك. كما وصل إلى مقري اليهودي يوسف وطلب مني أن أساعده في نقل جاليته من العربية السعودية إلى فلسطين، واقترحت عليه أن يأتي ليستمع للأخبار من القدس قبل أن يقرر.

كان الدافع، أو بعضاً منه، لرغبة اليهود في الهجرة إلى فلسطين غريباً. لقد عاشوا لعدد من الأجيال في نجران في توافق مع أكثر قبائل الجزيرة العربية شراسة ولم يصدر منهم ما يشتكون منه. لا يمكن للعرب أن يستغنوا عنهم حقيقة بسبب خدماتهم نحو المجتمع، التي لا تقدر بثمن، إذ أنهم، إلى جانب أنهم يصنعون الجواهر والحلي الصغيرة للنساء. فهم أيضاً صانعو أسلحة ومختبروها في المنطقة. لقد أحسوا الآن -وخلال السنتين الأخيرتين أو السنة الأخيرة- أن عملهم أصبح متدنياً، ذلك لأنه تحت النظام السعودي الجديد وأمنه، فقد تحولت السيوف، على سبيل المجاز، إلى شفرات محاريث، وأصبحت المحاريث المحلية تصنع من الخشب إلاَّ من ظفر معدني لحماية الطرف. أخبرني يوسف كذلك بأن الإمام يحيى يبذل كل ما يستطيع من جهد لمنع هجرة اليهود من اليمن إلى فلسطين، حقيقة، فهم عنصر مهم جداً بين سكان هذه الأجزاء، وحقيقة، فإنهم يعاملون بأسلوب يشعرهم بالتفوق. كان من بين صناعاتهم في صنعاء، صناعة النبيذ والتي يحرم بيعها للمسلمين.

دعاني يوسف لقضاء يوم مع جاليته وقد تم الاتفاق المبدئي على الثالث عشر من يوليو، حينما ذهبت برفقة فرج وسائقي محمد بالسيارة إلى مزارع نخيل عكلة، بالقرب من منجمٍّ، حيث أقام يوسف منزلاً دائرياً لأسرته المكونة منه وزوجته وإبنهما الصغير سالم. كان منزله أكبر قليلاً من الكوخ وكان مكوَّناً من ثلاث غرف، إحداهما في الطابق الأرضي والأخريان من فوقها وترتبط الغرف

الثلاث بسلم حلزوني مبني من جدار من اللبن. لا يسمح لليهود بامتلاك الأرض في نجران، غير أن صاحب مزرعة النخيل العربي صرَّح ليوسف بالبناء. دعا يوسف عدداً كبيراً من جاليته للحضور لمقابلتي كما رحبت زوجته بالحضور، إلاَّ إنها وبعض النسوة اللاتي كن يعاونها في العمل، لم يجلسن معنا. علمت بأنه لا توجد حدود لعدد الزوجات عند اليهود، غير أنه بالنسبة للظروف الخاصة في جنوب الجزيرة العربية، وفعلياً، فإن زوجة واحدة تكفي. نادراً ما تعتنق الفتيات اليهوديات الإسلام لأجل الزواج من عربي، غير أنه قد قيل إن الإمام يحيى كانت له زوجة يهودية -بالطبع بعد اعتناقها الإسلام- وكانت ذات جمال عظيم وقد طلب يدها العديد من الخطاب العرب، إلاَّ أنها فضلت أن تكون زوجة للإمام نفسه.

روفقنا عند قدومنا إلى غرفة الضيوف التي تقع بالطابق الأعلى حيث وجدنا طبقاً ضخماً مملؤاً بالعنب الممتاز، ودارت فناجين الشاي والقهوة أثناء تجاذبنا الحديث. كان موعد الوليمة قد حدد بفترة ما بعد الظهر، سبب ذلك، أنني ذهبت مع يوسف إلى سوق الإثنين، الذي ربما جُلب منه العنب، ولم نتمكن من العودة إلاَّ بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة ظهراً. عرضت عليهم فكرة فترة للاستجمام والراحة بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث لبعض الوقت، فكان أن أحضر لي الفراش ووضع تحت بقعة ظليلة عند حافة المزرعة. استغرقت في نوم ممتع لمدة ساعة وصحوت على ضجيج أطفال كل المدعوين الذين دعاهم يوسف لمنزله، وقضيت لحظات سعيدة بالحديث معهم. كانوا يتمتعون بجاذبية شديدة وجدية وجمال عظيم، ثم لحقت بالكبار من الضيوف في غرفة الضيوف حيث يقدم العشاء. كان قحف اللحم الجيد الطبخ قد فاض قليلاً بالحساء وكان الأرز ليناً أكثر من اللازم،

غير أنه لا شيء ينقصه إلاَّ هذا، كما كان لدينا خبز ممتاز ومزيد من العنب، يتبعها مرة ثانية الشاي والقهوة، ومشروب قشر البن.

وصلني فيما بعد نقد لزيارتي هذه من جانب بعض العرب الأصدقاء يلومونني على تناول الخبز مع اليهود. غير أنى أوضحت لهم بأنهم «أهل كتاب» أيضاً وقد أكرموا الرسول ﷺ في المدينة. كما أن الرسول ﷺ تزوج من امرأة يهودية. مهما كان، فقد استمتعت تماماً بزيارتي للكوخ الصغير المظلم الشبيه بالحصن عند طرف عكلة.

كان جد يوسف الأكبر، أكبر الجدود الكبار، وهو هارون، أصلاً مواطناً من مواطني حرز في اليمن، وغادرها ليعيش في أملح في بلاد وعيلة جنوب وادي الفرع. تناسل هارون وتكاثر هنالك وكان له خمسة أبناء انتشروا في عدة اتجاهات بحثاً عن سبل كسب العيش في مجال مهنة العائلة وهي صناعة الفضة، وصناعة الأسلحة وإصلاح الأسلحة، والطب البيطري وما شابه ذلك. ذهب اثنان منهما إلى صعدة وخولان، وظل آخر في أملح لمتابعة أعمال والده وحضر الاثنان الأخيران إلى نجران وهما بالاسم: سعيد وسالم. كانت أسماء الثلاثة الآخرين هي إحسان، وسليمان، وداود، -وكلها أسماء خمسه عربية جيدة- وهذا لِلْعِلْم. كان لسالم ابنان ما يزال نسلهما موجوداً في نجران وهما يوسف وهارون، وحفيد حفيد يوسف الأكبر، وسعيد بن داود بن يحيى بن يوسف، وقد كان واحداً من مجموعتنا التي تكوَّنت من ثمانية رجال بالغين وحوالي ١٢ امرأة وطفل. لعله مما يفيد تقديم جدول للأجيال التي جاءت من سلالة هارون والموجودة في نجران كما يلي:

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
هارون	سعيد	قلسة	يعيش	داود	موسى	
—	—	—	—	—	سعد	
—	—	—	—	—	يحيى	
—	—	—	—	—	يوسف	
—	—	سالم	يحيى	عيسى	يوسف(مضيفي)	سالم
—	—	—	—	—	مذمان	
—	—	—	—	جميل	داود	
—	—	—	—	—	يوسف	
—	—	—	—	—	يحيى	
—	—	—	—	—	سعيد	
—	—	—	—	سليمان	يحيى	
—	—	—	—	—	موسى	
—	—	—	—	—	مسعود	
—	سالم	يوسف	جميل	سالم	سعيد (في أملح)	
—	—	—	—	داود	موسى	يحيى
—	—	—	—	—	—	سعيد
—	—	—	يحيى	(داود)	سعيد	
—	—	—	—	مسعود	سعيد	
—	—	—	مسعود	يحيى	سعيد	
—	—	هارون	سعيد	يوسف	يحيى	سعيد
—	—	—	—	—	—	مسعود

obeikan.com

لقد وضعت خطاً تحت الأسماء الخمسة وكلهم من أفراد الجيل السادس، وقد تمكنت من مقابلتهم في هذه المناسبة، كما وضعت داود داخل أقواس، ذلك لأنه هو العضو الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة من أفراد الجيل الخامس. كان الأفراد القليلون الذي ورد ذكرهم في الجيل السابع قد بلغوا سن الرشد في هذا الوقت، غير أنني لم أشغل نفسي بالحصول على أسماء الأطفال، ما عدا ابن يوسف، واسمه سالم. كما لم أرهق نفسي بتأكيد أية تفاصيل عن أنسال هارون في أية مكان آخر غير نجران، فهم كثر بكل المقاييس.

لقد كان اليهود من نسل هارون، كما ذكرت، من أصل يمني، وقد ظلوا في نجران لمدة خمسة أجيال[1] أو ما يعادل ١٠٠ عام. كانت هنالك فرقة يمنية أخرى تعرف في هذه الجالية باسم العوعوي تنتمي إلى جميل بن سعيد وهو يهودي نجراني أمكنني أن أقابله عند وصولي إلى منجم. كان هو وخاله الثاني، يوسف بن داود من ضمن حضور الحفل في عكلة، وكانا هما الحفيدين لداود وسعيد، إبني جميل. كان من ضمن العواوين الذين ورد ذكرهم لي، غير أنه لم يكن موجوداً حينها، هو عيضة بن سعيد بن جميل، ويعتقد أنه خال ليوسف، كما كان ضمن الحضور شقيق يوسف، واسمه سعيد، أيضاً من أبناء نجران. وكذلك سعيد بن عفريم بن يحيى بن عواذ الشرعبي، ربما من أصل يمني أيضاً، وكان موجوداً في الحفل، غير أن هذه السلالة قد تكون خطاً محلياً، ويجد المرء نفسه مدفوعاً للتفكير في أن يكون هذا الخط للأسرة هو الصلة الوحيدة الباقية على قيد الحياة التي تربط اليهود مع الأخدود القديمة أو المستعمرات القديمة في كل من ناحي،

(١) هاجر كل يهود نجران الآن إلى فلسطين. (المؤلف).

وأجمع وعرم -وكلها مدمرة الآن مع بعض النقوش العبرية تذكر الزائر بوجودهم-. وهذا مجرد تخمين اقترحه غير أنه يوجد خط آخر، ولعله أكثر قدماً ليهود في نجران أصلهم جاء من العراق. يبدو أن هؤلاء اليهود يمثلون اليوم بعائلتين على رأسهما من بين الأحياء كل من سعيد بن جميل بن هارون ابن داود وسعيد بن يحيى بن داود بن سليمان. كان كاهن الجالية عراقياً أيضاً، رجل طاعن في السن، لم أتحصل على اسمه، ولم أقابله، يجب عليَّ، في الختام، ألاَّ أنسى الأسرة التابعة لقبيلة لاوي العبرانية وهو الخط الذي تفخر به هذه الجالية والتي كان يمثلها في هذا الوقت هارون بن سعيد بن سالم بن سعيد اللاوي. وتشير استدامة وتكرار ورود اسم سعيد -مع تحويرات أخرى مثل سعد ومسعود- إلى حياة سعادة ورفاهية، وهو أمر مثير للاهتمام، إلاَّ أنه مشوِّش ومحير.

تبدو الجالية وكأنها مؤلفة من نصف دستة من أصول مختلفة، ربما كشفت هذه الأصول عن موجات هجرة مميزة. قمت بزيارة كل من أجمع وعرم في طريق عودتي لقصر أبالسعود، ويقعان بالقرب من الصخور خلف مزارع دحضة، غير أنه لا شيء يُرى هناك غير بعض القبور اليهودية وبعض النقوش العبرية. لم أر مثل هذه النقوش في الأخدود أو ناحي، إلاَّ أنه قد أمكنني العثور على بعضها في وقت لاحق بين (ردوم) (أو القبور) على ممر نهيقة. كان إجمالي عدد أفراد الجالية اليهودية في نجران في هذا الوقت حوالي ٨٠ شخصاً بما في ذلك النساء والأطفال. وتنتشر مساكنهم في المزارع المختلفة.

لم تتحقق دعوة الغداء التي وعدت بها جابر أبو ساق حتى حان يوم رحيلي من نجران إلى الجنوب. عسكرنا في تلك الليلة عند الطرف البعيد لنخيل منجم، والذي تبلغ المسافة من عنده إلى الطرف الغربي لصفا في الممر الذي يفصل بين

الأجزاء السفلى والأجزاء العليا لواحة نجران حوالي ٢٣ كيلومتراً بناءً على سجل عداد سرعة سيارتي أو حوالي ١٤,٥ ميلاً ونصف الميل، لم تستطع السيارة الاستمرار إلى أبعد من صفا، والتي أعتقد أنها تبعد حوالي أربعة أميال (على أقصى تقدير) من الموفجة. ويبلغ امتداد واحة نجران كلها، على هذا الأساس، حوالي ١٨ ميلاً. قمت بقيادة السيارة من هذا المعسكر الأخير عند العصر في طريقي إلى معسكر جابر في سهل سعيد الكثير الأشجار، والذي يمتد فوق محيط التلال الكبير الذي يصب فوقه مجرى عشيبة ومسايل سيول ذات أهمية أقل من بين الجروف التي تمتد إلى التلال.

لقد رتبت تفاصيل سلسلة النسب التي جمعتها من جابر في هذه المناسبة والتي ليس لديَّ جديد يقال عنها. كان العشاء ذلك العصر سخياً جداً، إلا أنه من النوع العادي. لم يكن من عادة قبائل نجران، حتى وقت قريب، أن يجلس الضيوف حول طبق طعام مشترك، كما فعلنا في هذه المناسبة، غير أن كل ضيف يقدم له نصيبه منفصلاً، يقاس هذا النصيب، ربما، حسب أهمية الشخص. دُعي هذه المرة أفراد قليلون ممن حضر وليمة جابر وقد دعيت أنا وكذلك فرج وبالطبع جابر نفسه. قدم اللحم في قحف ضخم منفصل ذي أبعاد كبيرة، ووضع الخبز في قحف آخر وهو خبز مخبوز بالسمن وبإسراف ومنثورة عليه قطع شحم مسطحة، كان اللحم قاسياً ولكنه طبخ بطريقة لذيذة، كما كان اللبن ممتازاً.

تمكنت خلال هذا الوقت من إتمام استكشافاتي لكل القسم الشرقي لواحة نجران من عند منجم إلى صفا، وهو امتداد طولي يصل إلى ١٢ ميلاً وبعرض الميل الواحد في المتوسط من طرف مزارع نخيل إلى الطرف الآخر في الوادي الواسع، ذلك إذا تجاهلنا الانبعاج المشاهد في منطقة النخيل داخل الخلجان المختلفة للتلال

الشمالية بواسطة الجانب الضيق لصفا وحضن ومواقع أخرى. تغطي شرق نجران، على هذا الأساس، بما في ذلك مزارع نخيلها وحقول ذرتها الصفراء والأراضي الغير مزروعة، مساحة تقدر بـ ١٢ ميلاً مربعاً أو تقريباً ٧٦٨٠ اكرا، لنقل ٨٠٠٠ اكرا، وكلها محصورة في وادي يبلغ حجمه ثلاث مرات هذا الحجم من قاعدة التلال التي تمتد من ممر صفا إلى موقع خروج الوادي إلى فجوة دريب التي تقع أسفل خط رجلة – منجم بقليل. لا توجد زراعة أسفل هذه الفجوة عدا حقول صغيرة بالقرب من جزيرة برك الصخرية والتي تسمى أيضاً الرجا. يكسو بقية المجرى أشجار الطرفاء والأراك وغيرها خاصة عند النقاط التي تخرج منها بطون سيول قادمة من عند التلال على جانب الوادي الأيمن وعند فم شعيب دخل من ناحية الشمال.

لقد قمت بوصف القرى المقامة على الجانب الأيمن للوادي مسبقاً وهي بالاسم: حضن وبديعة، والقابل وما جاورها، ورجلة وضواحيها. تنقسم مزارع النخيل التي على الجانب الأيسر في مساره إلى أعلى، إلى عدد من المزارع الصغيرة لكل منها اسمه الخاص وتكون عدداً من الأقسام وأجزاء أقسام- أكثر هذه الأقسام ازدهاراً في الواحة هو ذلك الذي يقع بين منجم وبني سلمان (بالقرب من قصر أبالسعود) وهو أغنى أجزاء المنطقة كلها.

لا تتلقى مزارع نخيل نجران رياً صناعياً ذلك لأن جذور الأشجار تمتص الماء من المياه السطحية في الوادي الرئيس ومن روافده العديدة. كما توجد، بالطبع، أعداد كبيرة من الآبار ذات الأعماق المختلفة غير أن معظمها ضحل، إلاَّ أنه يستفاد منها في ري محاصيل الحبوب التي بدت وافرة الثمار بشكل مدهش وكانت سريعة النمو. يُحصد محصولان للقمح في العام وثلاثة محاصيل للشعير، وثلاثة أو

حتى أربعة، حسب الموسم للذرة والدخن. وتزداد سيقان الذرة غلظاً أثناء النمو وتطول، ولقد يتجاوز ارتفاعها من ١٢ إلى ١٥ قدماً. كما يوجد تسويق ضعيف لمنتجات نجران وعادة ما تكون أسعار الجملة منخفضة بصفة عامة. ينحصر محصول التمر من الصنف المسمى حمرة وهو من نوعية متوسطة. ويكوِّن الرمان محصولاً نقدياً إضافياً غير أنه لم يستو بعد في هذا الوقت كما أنه من نوعية متدنية وبذوره بيضاء وقشوره خضراء.

نذكر من بين المناطق المذكورة أعلاه والتي تقع إلى أسفل مع اتجاه الوادي كل من المذنب التي تتشارك فيها قبيلتا آل فاطمة (عند منجم) وآل هندي (عند زبيد وزبدة). ثم تأتي ملامسة لها تقريباً، من ناحية الغرب، بنى قدمة ويغلب فيها مواطنو قبيلة آل فاطمة مقارنة مع آل هندي -فتتكون من ست آبار أو مزارع مقابل خمس- وكما توجد إلى الغرب أكثر، وتقريباً بلا شيء يفصل بينهما، أكبر المجموعات، فعلياً، والتي هي أيضاً مشاركة بين القسمين. حيث تمتلك قبيلة هندي تسع وحدات ويملك أل فاطمة ١٥ وحدة بما في ذلك زلع (أو ضلع) التي تقع بالقرب من النهاية الغربية، وأيضاً القصر الشخصي وممتلكات جابر أبو ساق. كما تدار، إضافة لذلك، أربع منشآت شراكة بين عناصر من قبيلة آل فاطمة وعناصر من قبيلة آل هندي. تكوِّن هذه المجموعات الثلاث وهي المذنب، وبني قدمة، وصغير، وهي منطقة مميزة تسمى مخلاف وهي مصطلح من عصور وسطى. يتوقع المرء، أن مثل هذه الأوضاع للملكية المشتركة (في الأزمان السابقة) قليلاً ما عاشت فيها القبائل في سلام مع بعضها البعض، علماً بأن أرض المخلاف هذه هي أكثر أجزاء كل نجران مشاكسة وتكوّن قضاياهم معظم دعاوى الملكية التي تعرض على كل من الأمير والقاضي.

تسـود قبيـلة آل هندي إلى الغرب من منطقـة المخلاف وعلى جـانب الوادي الأيسر متضمنة، مزارع نخيل حضينة، ومـستنير، وبئر ربيعة التي تقع قليلاً إلى ما وراء قصر أبالسعود، والتي تعتبر في عـرف القبائل أرضاً لا مالك لها وتضم سوقاً وأرض المعارض.

تكوِّن قصور الأشراف ومزارع نخـيلهم في مَخَبي على الجانب الأيسر للوادي خروجـاً واستثناء للعـرف العام بملكية قـبيلة آل هندي لهـذه الأرض، والتي تمتد، بالطبع، فوق الجانب الأيمن أيضاً من عند رجلة وحتى القابل. يتمم خط يربط بين النهاية تجـاه أعلى الوادي لقابل، مع بئر سـالم، الحدود الغربية لقـبيلة آل هندي، بينما تحتل قـبيلة آل مواجد تقـريباً كل مكان، بصرف النظر عن الاقتـحامات على حقـوق الغير من ناحيـة الغرب. يقع مركز سلـطان بن منيف في الحريزي في ممر رجلة على الجانب الأيمن، بينمـا تقع عكلة وهي مزرعة نخيل فـي اقصى الغرب، وكثيفـة جداً، وتتبع لمخلاف على الجانب الأيسر، وقد سـبق ذكرها بكونها موطن يوسف اليهودي. تنتمي كل من ابن زبعان وكل من مـزارع النخيل التالية من جهة الغرب وهي دحضة، بين الهضاب المنعزلة البارزة لكل من خلقه وفريخ، إلى قسم آل صقر التابع لقبيلة آل هندي، بينمـا يملك آل حارث (أيضاً هندي) مجموعة آبار بني سـلمان الكبيرة وأيضاً المزارع التي تقع بينهم وبين قصر أبي السعود.

تقع مكاتب الرئاسة لإخوان ابن نصيب، وهي الأسرة الرئيسة في آل مواجد، في مجموعة من القصور إلى الغرب من قـصر أبالسعود وبالقرب من مزارع نخيل المرطه وشبهان. كما توجد بالقرب من هذه مزرعة صغيرة تدعى ابن حامد ومعظم مساحتها تشغله بركة كبيرة نسبيـاً ويتمركز فيها مجموعة من الأطلال ذات الأهمية الضئيلة، ويبـدو أنها تتكون من ثلاثة أو أربعة قصور وكلها ليـست حديثة، وربما

كانت قديمة جداً. تقع خشيوة بالقرب من هذه القصور ناحية الغرب وهي مقر رئاسة طائفة المكارمة (الإسماعيلية) في نجران. يبدو هذا البناء وكأنه قصر أكثر منه منزلاً، كما أنه ليس بالقلعة، وهومحاط تماماً بحديقة ذات جدران ضخمة تحتوي الحديقة على أشجار النخيل وعلى العديد من أشجار الفواكه. كما توجد للمنزل واجهة ضخمة تفتح داخلياً ناحية الحديقة، والمنزل مكون من طابقين فقط، ويبدو أنه قد أعد لتأمين راحة النازلين فيه.

لقد ذكرت مسبقاً، قلعة عن المكارمة في شعب بران، وهي نصف مدمرة، وتطل على الوادي. توجد أسفل خشيوة وليست ببعيد منها مزرعة نخيل ذات اعتبار تدعى علو المخلاف، يمتلكها المكارمة أيضاً وتحتوي على قصر جذاب وقد أحرقته قوات الزيدية المحتلة، وهم الذين قاموا أيضاً بتدمير جزء من المزرعة والتي ظلت جذوع أشجارها المحترقة واقفة لتروي القصة. لا يبدو أن الزيود أضروا كثيراً بخشيوة، وكما قيل لي، فإنها قد أنشئت منذ ٨ أو ٩ سنوات قبل زيارتي هذه. إن المكارمة محصنون، مثلهم مثل الأشراف، ضد مضايقات القبائل وذلك لاعتبار مكانتهم الدينية. يطلق على رئيس الجماعة عادة اسم داعٍ، –قارن مع لفظ داي في الجزائر– ويطلق على المجتمع أحياناً القرامطة وهم الذين قد انتشروا غرباً من منطقة الأحساء في الجزيرة العربية في القرن العاشر الميلادي. كان من أشهر المكارمة وإلى أزمان حديثة نسبياً المدعو حسن بن هبة الله وهو رئيس نجران في القرن الثامن عشر وهو الذي غزا وسط الجزيرة العربية وهاجم القوة النامية للدولة السعودية في الدرعية والرياض.

قمت في نهاية استكشافي لهذه المنطقة برحلة خاطفة قصيرة إلى غرب نجران، متفقداً نقطة الشرطة في الموفجة وكذلك النهاية السفلى للسلسلة. كان هنالك

الكثير الذي يستحق أن يُرى خلال فترة العصر، فقمت، قبل مغادرتي نجران إلى الجنوب، بإعادة الزيارة إلى الموفجة لمدة ليلتين في العاشر والحادي عشر من يوليو لتكملة استكشافاتي للجزء الأعلى للواحة وكذلك السهل الذي يليها. كان سهل صفا الدائري هو الرابط بين قسمي الواحة وهو ممتلئ بعشب الحلفا والسمار (غفق) وبه مزرعة نخيل لا بأس بحجمها وكذلك عدد من القصور. يحيط بهذه من ناحية الغرب الرعن الأسفل لأبي حمدان، والذي عند نهايته ينحني المجرى في لطف ويدخل وادياً ضيقاً ويمر بفم شعيب بران وأيضاً بمزارع نخيل سلوى والتي تمت حمايتها من الإنجراف بجدار حجري متين يمتد من عند بداية المنحنى إلى هضبة رعوم في مواجهة جرف عن المكارمة. إن رعوم نفسها، وتحيط بها قلعة قديمة لا تزال تستخدم ويرقى إليها الإنسان عن طريق ممشى متعرج على جانبها الجرانيتي، هي أيضاً تابعة لأبي حمدان، وتنفصل عن رعنه بممر ضيق يسمى نجد يقود إلى سهل صفا.

لم يكن هنالك ما يثير الاهتمام في كل من قريتي صفا وسلوى، غير أن سلسلة قمة حمدان التي تقع خلف صفا تسيطر على منظر عظيم لكل الجزء الأعلى لنجران. أنها تؤلف مساحة بيضاوية ذات اعتبار ومحاطة بتلال ممزقة من كل جانب مع وجود مدخل ضيق جداً يقود إلى الوادي عند النهاية العليا ووجود مخرج أعرض يقع به نخيل صفا ونخيل زور بالحارث، الذي يبطن الجانب الأيسر للوادي في الجهة المقابلة لنا وذلك لبعض المسافة. تقع على يسارنا واحة زور ودعه الضخمة وهي محتضنة بين قاعدة أبي حمدان والسلسلة العالية التي تستمر ناحية الغرب. كانت كل الأراضي، حقيقة، الواقعة بين الجانب الأيمن العريض المنحني للوادي وبين التلال المحصورة على ذلك الجانب، عبارة عن كتلة من نخيل تتخلله

قصور السكان. كما تقف غابة ضخمة من القصب والحلفا، وشجيرات من أنواع مختلفة وبعض الأشجار بين النهاية العليا لنخيل زور وبالحارث والموفجة عند قمة الشكل البيضاوي. يمتلك كلا الزورين أهالي آل مواجد ينتمون إلى آل حارث بينما ينتمي الفخذ الذي يضم الموفجة إلى ابن الحذوبر (وهم أيضاً مواجد). تعادل المنطقة كلها ثلث القسم الشرقي لنجران أو أقل، وكان الفارق الرئيس بين الإثنين هو أن الوادي أسفل صفا جاف دائماً، ما عدا في مواسم السيول ولمدة قصيرة بعدها، بينما في الحوض الأعلى فإن مجموعة من البرك المستديمة تعلّم المجرى. وتكون المياه السطحية قريبة جداً من سطح التربة، وذلك لقرب الصخر التحتي، حيث أن أية اضطراب أو تحدب في هذا الصخر التحتي يؤدي إلى رفع الماء فوق سطح الرمال. ينمو على هذه البرك أيضاً غطاء نباتي ثري مكون من نبات الزعتر، والنعناع البري، ونباتات عطرية أخرى إلى جانب القصب والأسل وكلها في الحوض الأعلى.

لم تكن كل من الموفجة وزور وبالحارث بالمزارع المزدهرة الكبيرة، غير أن زور ودعة تنافس وتبز أي مزرعة أخرى في شرق نجران من حيث الحجم والثراء. تسيطر هضبة بارزة على سفح أبي حمدان على منظر رائع لهذه الواحة الجميلة والتي تباهت ذات يوم بقلعة صغيرة، هي الآن مدمرة، تسمى حصن، ويبدو أنه كانت بها أحواض من الأسمنت وأنبوب إسمنت أو قناة لجر المياه إليها من بين الصخور من جانب التل. قمت بزيارتها وأنا في طريقي إلى قمة أبي حمدان خلال اليوم الثاني لي في نجران، غير أنه لا يوجد ما يشاهد فيها غير الإسمنت المحطم، وكان بعضه في موقعه الأصلي، والحجارة المتساقطة من القلعة.

يقود الطريق من عند صفا إلى الموفجة، بعد أن عـبرنا المجرى وبركته الكبيرة الضحلة وهـي آخر بركة في السلسلـة حيث وصلنا إلى ممر ضيق جـداً عبـر غابة قصب كثـيفة يرتفع نباتها إلى علـو ١٥ قدماً، ومن ثم إلى أراض مرتفعـة يغطيها أشجار الطرفاء، ثم عبر براري الحلفا إلى أولى القرى ومزارع النخيل. كانت نقطة الشرطة عند الطرف البعيد للنخيل، وليست بالبعيدة عن المضيق الضيق الذي يهبط عن طريقه الوادي. يقود طريق آخـر أكثر دوراناً إلى الموفجة عبـر نخيل زور ودعه ثم إلى بئر مثلع عند الطرف البعيد والذي عنده كنت قد شاهدت قصراً مدمراً وبئر نحى التي نضب ماؤها منذ زمن بعـيد، -قيل إنه كان مقر قـرية يهودية قديمة- مع عدد قليل من أشجار النخيل لا تزال قائمـة لتطيل التفكير حول الأيام الجميلة التي مضت.

ينحدر مجرى شعيب مدر بين ناحي وزيته، وكلاهما مدمر، من عند جلاميد مدر في اتجاه الجنوب ليتصل مع الوادي نفسه. وينحدر أيضاً، وعلى مسافة ليست بالبعـيدة، شـعيب سفـيرة من عند السلسلة التي تحـمل الاسم نفسـه تجاه الجنوب الغربي بالنسبة للوادي، قليلاً أسفل المضيق، حيث تغطت كل أرضية الوادي بملاءة من مياه ضحلة. كانت المياه هنا وفي المضيق منسابة بالفعل، ولكن بسيلان هزيل. أقمنا مـعسكرنا في حديقـة بالقرب من نقطة الشرطة، والتـي دعانا أهلوها لتناول العشاء معهم في الهواء الطلق.

كان عـرض الممر الصـخري الضيق، الـذي ينشق عبره الوادي عـبر حـاجز صخـري متين (ارتفـاعه ٢٠٠ قدمـاً) يمتد من السلسلة على الجـانب الجنوبي إلى حوالي ١٠٠ ياردة من السلسلة الشمالية، حوالي عشرة أقدام ويسمى جَلَد. تسمى الفتحة الـعريضة التي تقع قليلاً ناحية الشـمال مضيق، وعبر هذه تنحـدر السيول

لتنحني إلى الخلف إلى الوادي بجانب الموفجة، أو حتى عبرها. يتحزز هذا المجرى، أو مجموعة المجاري، وذلك لوجود أكثر من بطن سيل واحد، عميقاً في الرمل والحصى وجانباه غزيران بشجر الطرفاء وبغطاء نباتي آخر. يمر الوادي عبر المضيق فقط ويقال إنه عادة ما يكون جافاً في الموسم الجاف، إلاَّ أنه في هذا الوقت كان عمق مائه حوالي ١٨ بوصة وكان ممتلئاً بأسماك صغيرة. كان الارتفاع هنا ٤٧٠٠ قدم فوق سطح البحر وحوالي ١٠٠ قدم فوق قصر أبي السعود.

يبلغ طول مضيق جلد حوالي ٥٠ ياردة من الشرق إلى الغرب. يوجد عند جانبه الشمالي وقريباً جداً منه ممر آخر عبر الصخور، يبلغ عرضه أيضاً ٠عشرة أقدام، والذي ربما قد تم إنشاؤه لضخ الفائض للمياه في حالة ارتفاع منسوب المياه إلى ذلك الحد في مقابل سد يبدو أنه مقام في وسط المضيق نفسه، حكماً بآثار القطع المشاهدة في الصخور على كلا الجانبين، والتي ربما قصد بها أن تمسك نهايات الحاجز. وتم كذلك نحت مجرى ضيق عرضه ثلاثة أقدام، في صورة مماثلة، على الجانب الجنوبي للمضيق، على جانب الصخور، لينقل المياه إلى ما يمكن القول عنه أنه ثكنات قديمة أو معسكر، والذي أقيم هنا لإيواء الحراس الذين يقومون بمراقبة السد. يبدو أن كل هذا التركيب القنواتي، والخليج المسدود، ومصرف الطوارئ، وأنابيب نقل الماء، كلها من عمل الإنسان في الأزمان القديمة حينما كان اهتمامهم ينصب على تأمين الماء الكافي لنجران ذات الكثافة السكانية الأحسن.

يوجد خلف الحاجز الصخري حوض دائري طبيعي ضخم يبلغ قطره نصف الميل ينحدر على جوانبه مجريا جلد ومضيق، عبر أراضي ذات غطاء نباتي من الطرفاء والأراك والشار وبعض التين البري، في طريقهما إلى مجرييهما حينما

ينفصلان بعد أن أقبلا معاً كمجرى نهري واحد عبر المضيق العميق الضيق الذي يخترق الجبال. يلتف الوادي هنا -ويسمى في هذه المنطقة مضيق- ويندفع بصورة مذهلة بين سفوح شديدة الانحدار إلى حيث بطن الوادي الذي يتراوح عرضه بين ٥٠ إلى ١٥٠ ياردة، يكون حيناً رملياً، وحيناً مكسواً بجلاميد متساقطة، تبدو الآن بارزة من الأساس الصخري التحتي، يكون أحياناً جافاً، ويكون في مواقع من مجراه نهراً جارياً. يتجه الوادي بصفة عامة ناحية الجنوب الغربي ومسافة ميل ونصف الميل عبر الطريق الملتف إلى أن يبرز في السهل العظيم والمستوي إلى حد ما، والذي يدخله الشعيب الرئيس، شعيب مروان من ناحية الجنوب الشرقي، ليتصل مع شعيب العَرَض من ناحية الغرب وشعيب رفيدة من جهة الشمال الغربي.

يمر المجرى الموحد في ممر مضيق بين كتفي صخرة تسمى طريبة مكوّنة مداخلاً مناسبة لمجرى وادي نجران. وينحدر شعيب مروان، الذي يشكل الأطراف الحقيقية العليا لنجران، من خلال تلال سهل صعدة، حيث يتشكل من اتحاد عدد من المجاري المائية المنحدرة من الجبال الشرقية للمدينة. ينحدر شعيب العرض من عند جبال خولان، ناحية الشمال، ماراً بواحة نقعة في الطريق ثم يمر بأسفل سلسلة عالية تسمى فرد والتي عليها توجد بعض علامات الحدود بين اليمن والعربية السعودية. يعتبر شعيب رفيدة رافداً ثانوياً ينحدر من الممر المرتفع لعقبة رفيدة، والذي عن طريقه يوجد درب مطروق يقود إلى ظهران. يوجد في الأرض العريضة التي تلتقي فيها هذه المجاري، كمية كبيرة من الطمي المترسب تنمو عليه مجموعة من أشجار الأثل الكبيرة والتي منحتنا ظلاً لطيفاً حينما استرحنا لتناول الغداء. كانت كل التلال المحيطة من الجرانيت مع بعض الشست والكوارتز.

واجهتنا هنا معضلة غريبة في مجال تحديد الحدود. توجد مقبرة يمنية صغيرة على الجانب الأيمن لشعيب مروان، عند الموقع لذي ينبعج فيه في الأرض المنبسطة ليقابل مجرى شعيب العرض. لم تكن جنسية ساكني هذه القبور هي موقع النزاع. حسم أداء قَسَم بسيط من جانب اليمنيين بأن هذه المقابر تتبع آل ثعلة، من عشيرة وعلة. كانوا يمنيين، لم تجد لجنة الحدود -كما نصحها الخبراء المختصون- صعوبة في إقرار أن المقبرة أرض يمنية.

يتبع شعيب مروان، بشكل مشابه، ويجري عبر أراضي يمنية في معظم امتداده. عدا مسافة الميلين الأخيرين اللذين ينتهيان عند المقبرة. يتجه المجرى في هذا الموقع من الجنوب إلى الشمال، وعرضه هنا ١٠٠ ياردة وعلى الجانبين تلال معترف بأنها تتبع لقبائل لمواطنين يتبعون العربية السعودية. قررت لجنة الحدود أن بطن الوادي الفعلية يجب أن تعتبر ممراً تحت السيادة اليمنية يقود إلى المقبرة ومتضمناً لها. وقد وضع على طرفها مجموعة من حجارة تعليم الحدود لإرضاء الجميع. لم تكن هنالك ضرورة لوضع عمود مماثل على الجانب المقابل للشعيب، وليس من المحتمل أن هذا اللسان النحيل من بطن الوادي الذي يبلغ طوله الميلين وعرضه المائة ياردة سيكون مصدر نزاع. غير أنه في حالة نشوب حرب، فسيجد اليمنيون أن هذه المقبرة البارزة لا يمكن الدفاع عنها. يتصل، بالمناسبة، شعيب صغير آخر يسمى سوع بالملتقى العام لكل من فم مروان ورأس مضيق. صعدنا عند هذا الموقع إلى ١٢٠ قدماً فوق مستوى جلد.

بدأنا من عند هذا المكان التسلق على تلال منحدرة نسبياً تحيط بالجانب الأيمن لمروان. ووصلنا بعد فترة إلى مضيق ضيق يسمى دغمة على ارتفاع ١٠٠٠ قدم فوق المقبرة وفوق عمود الحدود. استطعت من هنا أن أقوم برسم الحدود وعلاماتها

كما أوضحها لي المرشدون الذين ساعدوا في وضع حجارة الحدود. كان عمود الحدود الثاني واقعاً بعد المقبرة على تل يسمى أسعر على الجانب الأيسر لمروان، الذي يدور ناحية الغرب فجأة، وذلك على مسافة قليلة فوق أسعر وعند موقع التقائه مع شعيب شوك الذي يأتي من جهة الجنوب، من بين جبل مغشة الذي يقع داخل انحناءته وجبل غزال في المنحنى بين دورانه نحو الغرب من شعيب شوك. كان موقع عمود الحدود الثاني عند مغشة، التي تأتي بعد أسعر، وكان العمود التالي فيما يلي مغشة من فوق سلسلة تسمى ضرك على الجانب الأيسر لمروان. يلي هذا عمود حدود آخر حددت له البقعة الوسطى من بين ثلاث نتوءات على رأس جلمود فرد الضخم والذي يكون كل من جانبه الشمالي، وشعيب العرض عند سفحه، إقليماً سعودياً، كما هو حال الإقليم التالي المحصور بين الشريط الذي يصل فرد وضرك ومروان من عند ضرك إلى أسفل. يتجه الشريط نهوقة مغشة من عند مقشة وملتقى شوك، ومروان، كما سيتضح بعد قليل.

تبعد نقطة الملتقى عن المضيق الضيق لدغمة بمسافة تقدر بحوالي ميلين ناحية الجنوب الغربي ومن هناك أمكننا رؤية شعيب شوك ناحية الجنوب لمسافة تبلغ أربعة أميال. أستطع رؤية سلسلة قيري وحضض وكلاهما يحمل علامات الحدود من الناحية الغربية، والتي سأصلها مع الوقت من جانب ناحية ظهران. ينحدر شعيب العرض بين السلسلتين وقد رأينا أجزاء منه من عند المضيق الضيق.

هبطنا من عند هذا الموقع إلى خليط من مسايل تتحد مع بعضها البعض لتكون مجرى فرع دغمة الذي يتجه شمالاً ليتصل مع المضيق الضيق. ارتفعنا مرة أخرى إلى مستوى المضيق إلى منطقة ذات صخور جرانيتية أملستها الرياح تسمى ضهر والتي أعادتنا مرة أخرى لموقع نرى منه (أبو حمدان) وعلامات أرضية أخرى

لنجران. أمامنا الآن مسيرة طويلة ومرهقة على الأقدام على امتداد مسيل الفرع الأراك الممزق الذي ينحدر فوق أراض قابلة للترسب والتي علينا أن نطوف حولها وحول جلاميد ضخمة والتي كان السير فوقها أمراً صعباً جداً. وصلنا في النهاية إلى المجرى السهل لشعيب صفرة وسرعان ما وصلنا إلى المعسكر لننال قسطاً من الراحة ونـنعش أنفسنا بتناول الشاي والعنب في انتظار وجبة العشاء. تجمعت السحب في السماء أثناء العصر وأثناء المساء حيث تساقطت قطرات من المطر والتي يبدو أنها أثارت نشاط البعوض المحلي إلى حد بعيد. تناول رجال الشرطة وجبة العشاء معنا واستمعوا للأخبار والموسيقى على جهاز اللاسلكي، غير أن التداخل الكهربائي الجوي كان كثير الخذلان لهم.

بدأنا المسيرة عبر الأراضي تجاه رأس وادي نهوقة في الصباح الباكر لليوم التالي، بعد أن قمنا بإرسال عفشنا إلى قصر أبالسعود. قام كل من جابر وصالح اللذان رافقانا كل هذا الوقت خلال زيارتنا إلى الموفجة، بدور المرشد، بإرشادهم لنا سلوك طريق بئر مثلع عند حافة زور ودعه. لاحظت بمحض الصدفة انهما غير قادرين على تحمل العطش في مثل هذه الحملات الدافئة في التلال. لم تكن لديهما فكرة عن الاقتصاد في استخدام الماء، وكانا يعتمدان دائماً على عامل الحظ أو المعلومات المحلية للحصول على حاجتنا من المياه، بينما استطعت أنا وبسهولة أن أكتفي بجرعتين من الماء متى ما أحسست بالحاجة إليه.

كان هدفنا الأول هو الوصول إلى كتلة الحجر الصخري البارزة التي تسمى زبرة التي تقع على صخرة عبين التي تطل بدورها على وادي نهوقة على الجانب البعيد. بدأ تسلقنا على مسافة من ناحية الموفجة إلى ما وراء بئر مثلع ووصلنا خلال أقل من ساعة، وبعد جهد جهيد، إلى نقطة تماس الحجر الصخري التي

ترتفع إلى حوالي ١٣٠٠ قدم فوق سطح الوادي. وصلنا بعد ارتفاع ٥٠ قدماً أخرى إلى منصه حجر رملي عليها سلاسل جبلية هنا وهناك. كان اليوم جميلاً، ولأول مرة أرى قمم خولان البعيدة فيما يلي بقيم وأرى كذلك سلسلة ضحه وهي تحيط بوادي حبونا من الجانبين.

كان الصعود إلى قمة زهرة التي ترتفع إلى حوالي ٤٠٠ قدم فوق سطح الهضبة وحوالي ٦٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر، صعوداً سهلاً من جهة الشمال حيث بدا الحجر الرملي وكأنه مدرجات لطيفة، وكل ما شاهدته في الطريق كان ضرباً من الزخرفة البدائية منها رسماً لوعل على صفحة جدار نحتته الرياح كأنه مأوى. استطعت من هذا الموقع أن أرى مَيحر إلى البعيد ناحية شرق الجنوب الشرقي وكذلك سلسلة عشّة تجاه صعدة ناحية جنوب الجنوب الغربي، وكذلك جبال السراة البعيدة ناحية الجنوب الغربي. كان كل ما يهمني، من وجهة نظري هو أنني استطعت أن أحدد بعض النقاط الحدودية التي أرغب في تثبيتها في خريطتي لهذا الجزء من الحدود. لاحظنا في هذه الأثناء، قطيع ماعز على الهضبة، عند القاعدة، وبناء على هذا فقد ذهب صالح ليحضر لنا كمية كبيرة من الحليب والتي بلا شك رحبنا بها كثيراً.

كان عمود الحدود عند صبغة آل شنينة مشاهداً لنا ناحية الشرق على هضبته الصغيرة فيما يلي المنخفض العريض لوادي نهوقة. يحمل هذا العمود (الرقم ٥) من جولتي السابقة من عند أم خرق، وأستطيع الآن أن أقوم بتثبيت موقعه. كان العمود السادس مرئياً أيضاً ناحية جنوب الجنوب الشرقي (رأس غربة) الذي يقع عند رأس مسيل بالاسم نفسه والذي ينحدر هابطاً من عند الجلاميد إلى الجزء الأعلى من وادي نهوقة. كان موقع العمود السابع على رأس هجا إلى الجنوب

الغربي من موقعنا على سلسلة مدر الطويلة المواجهة لشعيب المدر وشعيب صفيرة، وكلاهما مصبان لوادي نجران. يتجه الشريط من هنا إلى قمة دغمة -التي يبدو أنها ليست معلّمة- وتقع بالقرب من المضيق الضيق الذي قد ذكر آنفاً، ثم يتجه إلى أسفل إلى بقعة (غير معلّمة) على الجانب الأيمن لمروان مقابل أسعر. يتبع الشريط الأيسر الجانب الأيمن لمروان إلى حيث عمود مقبرة ثعله (رقم ٨)، ثم يعبر إلى بقعة غير معلّمة على الجانب الأيسر ومن ثم يتبعه إلى أسعر (رقم ٩). يتجه الشريط بعد ذلك إلى مغشة (رقم ١٠) ومنها إلى ضرك (رقم ١١) ومن هذه إلى فرد (رقم ١٢). كما أخبرت بأنه إلى جانب هذا فإنه توجد حجارة حدود على شحات الغميرة وعلى عتم وعلى جبل حضض، غير أن كل من جابر وصالح كانا غير واضحين حول هذه المعلومات، لأنها تقع خارج بلادهما، وعليَّ أن أقوم بدراسة هذه المواقع عن قرب أكثر خلال الشهور القادمة. إنني قنوع الآن بأن الحدود قد تم تثبيتها من عند تنصب إلى فَرد، إلاَّ أنه لا يزال هنالك الكثير من العمل على نقاط مختلفة على هذا الشريط والتي سينظر في أمرها بعد عودتي من الجنوب.

سرنا على حافة الصخرة من أسفل زبرة إلى أن وصلنا إلى قمة الجرف المطل على وادي نهوقة، الذي يكوِّنه انحدار العديد من المسايل من عند مدرج لجدران منحدرة صعبة والذي تراكمت الصخور المتساقطة عند قدمه إلى مئزرة من كتل فلزية. توجد نقطة شرطة أخرى في وتر الجلمود وتحتل موقعاً بين الأشجار الجيدة النمو والجنبات الكثيفة على جانبي المجرى، وهي عبارة عن خيام، كل خيمة تقع داخل زريبة من أعواد الشجيرات، كما لاحظت أيضاً، قليلاً إلى أسفل أن هنالك عدداً من خيام البدو المنتشرين في ظلال الأشجار إلى جانب حظائر من أعواد

الأراك لأغنامهم. رأيت هنا أيضاً عمود حدود بارز (والذي أعطيته الرقم ٦أ) ويقع إلى يمين عمود رأس غربة وعند قمة ممر عقبة التي يقود إليها طريق نجران – صعدة الرئيس، من عند رأس الوادي.

لم يكن في مقدوري أن أنصرف لاستكشاف هذا الموقع خلال هذه الفترة، غير أنني قمت بذلك بعد عودتي من الجنوب، ولعلي أقوم بسرد تفصيلي لوصفها فيما بعد. كان هذا الجرف يقوم على ارتفاع ٦٢٠٠ قدم فوق مستوى البحر، وكان حجر تماس الحجر الرملي يجلس فوق طبقة خفيفة (حوالي ١٨ بوصة) من كتلة مشكلة خشنة، يقع أسفلها جرانيت ذو لون رمادي جزئياً (تقريباً أبيض) وجزئياً بلون داكن. كان ارتفاع قاعدة هذا الجلمود حوالي ١٢٠٠ قدم تحت القمة، التي وصلناها بعد تسلق نشط بين الجلاميد المتناثرة وعبر رفوف ضيقة فوق أجزاء ترسبية للصخرة.

حضر الأمير لمقابلتنا بعد سماعه بعودة فريقنا وبأننا نخطط لزيارة نهوقة، وفي رفقته كل من القاضي والقائد سالم ويحيى بن نصيب، وقد اجتمعنا كلنا في الخيمة الرئيسة لنقطة الشرطة مستمتعين ببرودة المساء وبالقهوة والمنعشات الأخرى، حتى حان وقت صلاة المغرب، وبعدها عدنا كلنا مستغلين سيارة البك أب الوحيدة، منطلقين بها أسفل الوادي إلى حيث نقطة الشرطة التي تقع عند مفترق (حضن) والبديعة، ومن هنالك توجهنا إلى معسكرنا. كانت المسافة حوالي تسعة أميال من عند البئر القديم والذي تقوم الشرطة حالياً بحفره مرة أخرى عند رأس نهوقة وقد قمنا بالقاء نظرة عليه أثناء توقفنا هناك، وذلك لنوازن احتمالات حصولهم على الماء منه ثم نقله إلى قصر أبالسعود الذي يبعد بأكثر من الميلين بقليل من عند نقطة شرطة حضن. توجهنا إلى منزل سيد علي الجنيدي الذي كان

يتوقع حضورنا لتناول العشاء عنده، وقد قام بتقديمي لمدير المالية الذي عين حديثاً في هذا المنصب وهو شاب مصري يدعى محمد البيومي، والذي، لسعادتي قد أحضر لي معه بريدي من أبها – مجموعة خطابات تراكمت خلال ثلاثة أسابيع وإلى جانب الصحف التي أرسلت لي من جدة قبل ٤٠ يوماً! كان ترحيبي بالبريد شديداً خاصة ونحن على وشك المغادرة، ولن نرى البريد والصحف بعد الآن مدة قد تطول. أخبرني الأمير عن قصة رجل قدم حديثاً من الجنوب حاملاً أخباراً عن اكتشاف لآثار في وادي مرخة في بلاد عُلقى، والتي قد قمت بزيارتها فيما بعد.

لم يكن من ضمن المدعوين يحيى بن نصيب حينما أعلن لنا عن العشاء وكان غيابه بسبب أنه لم تقدم له الدعوة بالتحديد. كان ذلك، على أي حال، خطأ بلا شك، وقد طلب الأمير من فرج أن يذهب لإحضاره، وقد فعل. أصابتني الدهشة وأنا أرى فرج يدخل غرفتي وقد لبس أجمل الملابس، وسألته أن كان سيقوم بمقابلة سيدة له – كان حساساً جداً لمثل هذه الأشياء، وكان يعرف ما عليه القيام به بالنسبة لمثل هذه المواضيع إلا أنه أجابني بالنفي، لدهشتي، وأضاف أنه قد جاء لتقديم استقالته عن خدمتي من الآن، وأنه يريد كل مستحقاته. تجاهلت طلبه وحاولت أن أخفف عنه، وكل ما استطعت أن أستخلصه منه أنه كان غضباناً غضباً شديداً محتجاً أن يرسله الأمير كأنه الخادم الخاص له لإحضار يحيى للعشاء. لقد جرح هذا التصرف كرامته. ناقشته بلطف غير أنه انصرف ولم يهدأ، علماً بأنني أعرف أنه سوف لا يغادر المكان دون استلامه لاستحقاقاته، إلى جانب أنني بالتأكيد لا أرغب في أن أفقد خدماته القيمة.

كان فرج من أحسن الرجال الذين خبرتهم في كل رحلاتي، وبرغم أنه يتعرض لبعض الحالات المزاجية، فقد كان يكبح جماح نفسه معي، وكان في هذا

إجهاد لكل منا، كانت البلاد التي سننتقل إليها، بالطبع، غير مألوفة لديه، ويجب عليَّ أن أذكر أنني كنت سعيداً حينما رأيته صباح اليوم التالي، وهو لا يزال غضباً ولا يزال يهدد بالمغادرة، إلاَّ أنه كان يرتدي ملابس العمل، وطوى النسيان الموضوع كله.

كان موعد مغادرتنا، حقيقة، أبعد مما قد اعتقدناه تلك الليلة، إذ أننا لم نتمكن من المغادرة إلاَّ بعد عشرة أيام أخرى. دعانا في المساء التالي، مهندس اللاسلكي، واسمه محسن جلال إلى العشاء معه واستمعنا إلى بعض التفاصيل عند كارثة اقتصادية حدثت خلال ذلك اليوم. لقد حضر مدير المالية الجديد ليكنس الأمور بمكنسة جديدة، فما أن أعلن رجال الأعمال المحليين بالإصلاحات الجديدة التي سيتم إدخالها في نجران حتى أقبل كل التجار الزيود كرجل واحد، لمقابلة الأمير باحتجاج قوي ضد المشروع المقترح. كانت العملة المعيارية في جزيرة العرب الصحراوية هي ريال ماريا تريزا الذي ضرب عام ١٧٨٦م وهي عملة تحمل دائماً هذا التاريخ، وصورة الامبراطورة واسمها ومتى وأين تم سكها ولا توجد دولة محتكرة لسكها.

أدخلت الحكومة السعودية قبل عشرة أعوام من تاريخ اليوم الريال العربي، الذي سك لأول مرة في مدينة برمنجهام، ويعتمد على الريال التركي المجيدي من حيث الحجم والمحتوى. لم يكن هنالك اعتراض على هذا التطور، طالما لم تكن هنالك محاولة لإسقاط العملة القائمة المحبوبة، غير أن المصاعب المالية إلى جانب أسباب أخرى قد قادت إلى تغيير آخر حديث، إذ تم تعطيل سك الريال العربي، وحل محله الريال السعودي بحجم ومحتوى الفضة كما في عملة الروبية.

أحضر مدير المالية معه من مكة العملة الجديدة، ولتثبيتها فقد تم الإعلان عنها أنها ستكون هي العملة القانونية التي يقبل التعامل بها في نجران -وبالطبع في أي مكان آخر-، ولها قيمة الريال العربي نفسها وبالسعر نفسه، إلى جانب عملات صغيرة من النيكل هي بالاسم ٢٢ قرشاً دارجاً (القروش العادية) للريال الواحد. يتم إعادة كل ريالات ماريا تريزا إلى الحكومة حيث تعتمد في مقابل الضرائب بسعر ٢٤ قرشاً دارجاً للريال. وهذه مضاربة مربحة بلا شك للحكومة، والتي لن تدفع إلى السوق أي ريالات ماريا تريزا أو ذهباً في مقابل التزاماتها. يعني هذا أن الموظفين والشرطة سيكون لديهم فقط إما الريال السعودي أو الريال العربي للتعامل بهما في المتاجر، ولدفع - بالمناسبة - ديونهم القديمة، التي تسبب فيها طول انتظارهم لرواتبهم، عن طريق تراكم الرصيد الدائن، الذي كان التجار كرماء فيه. أعتقد أن الأمير كان متعاطفاً شخصياً مع المجتمع المحلي ضد الأساليب الجديدة لمصلحة المالية في مكة. وسيأخذ الموضوع، بلا شك الكثير من الوقت ويجلب الكثير من المتاعب لجعل العملة الجديدة تجد القبول في المجتمع الذي كان ولعدة أجيال قد تعامل في مودة مع الريال الفرنسي -فرنسي أو فرانسي كما كانوا يسمونه- والبقشة المتواضعة (تعادل زلطة أبها) وشاحي (خمسة بقشات) التي ساعدت على تقسيمها إلى أجزاء لا حصر لها.

أحضر علي الجنيدي جهاز جرامافونه بعد أن غادر الأمير والقاضي، وجلسنا نستمع إلى إسطوانات عربية لأم كلثوم ولمطربين آخرين. كما وصلت إلى مسامعي الأخبار باستدعاء الحملة العلمية المصرية إلى صنعاء في صورة مذلة وذلك لمحاولتهم الشروع في القيام بعمل حفريات غير مصرح لهم بها في وادي خريد. كما قيل لي إن مشروع زيارتهم إلى عمران وقلفة قد عطل، إلى أن يقدموا للإمام

تأكيداً قاطعاً بأنهم لن يقوموا بالحفر مرة أخرى. لقد تقلصت حرية حركتهم بكل تأكيد، ولعله في مثل هذه الظروف قررت البعثة حزم أمرها ومغادرة اليمن إلى عدن في طريقهم إلى حضرموت، حيث سأقوم هناك بمقابلتهم وتبادل الانطباعات حول تجاربنا معهم.

دعانا محمد البيومي في الليلة التالية للعشاء وقد قضيت يوماً مريحاً في صحبة بريدي. غير أنني خلال اليومين التاليين كنت متقلب الحال أحاول مقاومة علامات الحمى التي لا تخفى عليَّ والتي لحسن الحظ لم تكن شديدة الخطورة. كنت -على أي حال- قادراً على مقابلة الرجال المتوحشين الذين جمعهم الأمير لي لقيادة مجموعة الجمال الخاصة. وكانت علامات المغادرة لبداية الرحلة المتوقعة في أية لحظة قد تضاعفت في سرعتها مع تكرار الأعذار التي لا مفر منها. لتحاشي تفاؤلية أكبر. نقل إلينا جهاز اللاسلكي، في هذه الأثناء، الأخبار بأن السيد أورمسبي قور O.Gore قد أجرى مقابلة مع الوفد العربي في لندن حول تعيين اللجنة الملكية برئاسة اللورد Lord Peel بيل لإعادة فحص مشكلة فلسطين بغرض إيجاد حل يرضي اليهود والعرب على السواء. لقد تحول الطقس الآن، وبلا شك، نحو الأحسن، وكانت الليالي، في السطح جميلة بشكل مدهش، حيث كنت أنام دائماً، وكنت أرى كلاً من الدائرة القطبية والمشتري يتلألأن بين ملايين النجوم. اختفى الضباب المعروف حتى خلال ساعات النهار ووقفت تلال الوادي خاصة في أوقات الصباح الباكر واضحة كالبلور وقد تحددت فيها الزوايا والصدوع وجوانبها المتجعدة.

أديت صلاة الجمعة (١٧ يوليو) في مسجد القصر ولأول مرة وهو فناء كبير عارٍ ذو أجزاء ضحلة مغطاة في صفوف من الأعمدة ناحية القبلة فقط (الشمال

الغربي). بعد انتهاء الصلاة التي أمَّها القاضي، عقد الأمير استقبالاً جماهيرياً لكل الموظفين والأعيان المحليين. كان موضوع الحديث الرئيس، بعد مناقشة مسألة فلسطين بإيجاز وأخبار الاعتداء بالأمس على حياة الملك إدوارد أثناء الاستعراض في حديقة هايد بارك، هو حول المشكلة المالية المحلية. كان بعض الأشكال ينحصر في أن المعاملات التجارية للتجار الزيود مرتبطة مع اليمن القريب، أكثر من ارتباطها مع مكة البعيدة، وأن العملة السعودية لا تقبل في اليمن في مقابل البضائع.

أحسست بالحمى بعد عودتي إلى حجرتي غير أن الحمى هذه المرة كانت خفيفة وقضيت بقية اليوم في غرفتي عاجزاً في قبضه التصعيد المتدرج للحمى وكنت أدفع نفسي دفعاً إلى السطوح وبصعوبة عند الساعة العاشرة مساء لأتغلب على الحمى بالنوم. تفاعلت مع الأحداث في اليوم التالي بهدوء، على الرغم من أنني حضرت حفل العشاء على شرف الأمير الذي دعاه الدعيجي، وهو رجل شرطة آخر وصل حديثاً. لم أكن في حالتي الصحية التامة، لأحكم على جودة الطعام النبيل الذي قُدم لنا، وقد هاجمتني الحمى مرة أخرى في اليوم التالي ومنعتني هذه المرة من أي نشاط للمرة الثانية. كنت على وشك أن أتقيأ حينما أخبرت بوصول مضمان، شقيق اليهودي يوسف، وأنه ينتظر أسفل السطوح ومعه قط بري اصطاده بالرصاص. لقد تغلبت إثارة هذا الخبر على الحمى حينما حضر إليَّ وهو يحمل قطة عادية سوداء من ذيلها! كدت أن أتقيأ في التو واللحظة، وأدرت رأسي لأقابل الحمى القادمة.

لقد أعطيت الأمير كل ما لديَّ من دواء الكوينين في الخرمة، ويبدو أن نجران خالية تماماً من هذا الدواء، غير أن شخصاً طيباً تمكن من الحصول على بعضه

وقدمه لـي هذا اليوم، وأشعر الآن بتـحسن بسببـه، غير أنني ظللت صامـتاً طوال اليوم التـالي في انتظار مغـادرتنا التي اقتـربت والتي لم أرغب في تعطيلهـا بسبب مرضي. كما لم أقم بالمشاركة في تناول عشاء الأمير وفضلت أن أنام مبكراً.

صحـوت مبكراً على غـير عادتي في الـيوم التالي، حـوالي الساعـة الرابعة صباحاً، قبل الشروق بقليل. كان صباحاً جميلاً، اتكأت على حاجز السقف الذي يحيط بسقف غرفتي لأستمتع بمنظر الفجر. عـبرت سحب خفيفة عالياً في السماء بينما انتشر ضباب خفيف فوق الوادي، حيث تشاهد برك هنا وهناك لمياه سيول لم تمتصها التربة، فوق المجرى الرملي الذي يجـري ناحية السطح المستوي بلطف وقد كساه اللون الوردي الذي ظلل عن دريب ناحية المدخل الشرقي لنجران. تحول هذا اللون ببطء إلى لون برتقـالي عمـيق وهذا بدوره تحول إلى اللـون الأصفر المتـسخ عندما برزت الشمس فـجأة فوق الأفق الواضح. كان هنالك ضجـيج وصياح في الفناء السفلي، بينما كنت مشغولاً بمـراقبة هذا المنظر، ولما نظرت إلى أسفل ناحية مصدر الإزعاج، رأيت الدعيجي وفرقة صغيرة من رجال الشرطة يحاولون الفصل بين مجـموعتين غـضبانتين ممن يدّعـون استعدادهم للقـتال وقد نجـحوا في وقف الشجـار في نهاية الأمـر. لاحظت لبعض الوقت برودا وعـداوة مقنعـة بين سالم أفندي، ضابط الشرطة، ومـوظفي مصلحة المالية والذين يوجـه لهم الاتهام بأنهم يخدمون أنفسـهم جيداً على حساب الجنود ورجال الشـرطة الذين تأخرت رواتبهم كثيراً.

كان هنالك مـبرر في هذا الاتهام غيـر أنه ليس هو بالفرصة الحـقيقيـة لحرب مدنيـة بين المجموعـات المختلفـة للموظفين السعـوديين. تطورت هذه المرارة برغم محاولات الأمير للتخـفيف منها ببراعة، وأما مشاجرات الصبـاح فقد نشبت فجأة

بسبب شجار بين سالم ومحسن جلال بعد صلاة الفجر في المسجد، ولربما واصل مؤيدوهما الشجار إلى نهايته لولا تدخل الدعيجي. توقعت أن ننطلق في رحلتنا في اليوم التالي، غير أن الأمير كان مشغولاً بهذا الحدث السيء، لينظر في احتياجاتي، برغم أنه بعد أن قام بالاستجوابات حول الموضوع بقدر ما تمليه الظروف، انتهى بتوجيه مذكرة لوم شديدة إلى سالم مذكراً إياه بأن من واجبه هو الحفاظ على الأمن وليس الإخلال به.

امتنع سالم عن حضور حفل عشاء الجنيدي تلك الليلة التي وقع فيها الإزعاج، وامتنع كذلك عن حضور عشاء الدعيجي في الليلة التالية، وكانت تلك آخر ليلة لنا في نجران في الوقت الحاضر. أمضيت ساعة أو ساعتين جالساً في الحديقة الصغيرة التي أنشأها الجنيدي بعد جهد في جناح سكنه الغير واسع، غير أنه قام بزراعة مساحة صغيرة بالدخن، والذي ينمو الآن بصورة حسنة، إلى جانب نبات الفاصوليا وبعض الخضراوات الأخرى، وأقام صفاً من الجنداز كحاجز في محاذاة جانب الحديقة. كما أقام معرضاً صغيراً للحيوانات البرية يتألف من ستة غزلان (إدمي) كان قد رباها على لبن الماعز. كان معنا محمد النشمي، شقيق الأمير، وقد أخبرني بأن أصدقاءه يتهكمون عليه ذلك لأنه كان يسجل كل ما يفعله في مفكِّرة مذكرات خاصة (مثلي).

تناولت لأول مرة، بالمناسبة، بلح نجران الناضج في إحدى هذه الأمسيات، وكان بلحاً جيداً للدرجة التي جعلتني أشعر بالأسف بأنني سأغادر نجران تاركاً ورائي مثل هذه الرفاهيات. تحدثنا عن مناجم الذهب وإمكانية تطويرها في الجزيرة العربية وأخبروني عن حجر غريب تم العثور عليه في هذه الأجزاء وهو مجوف وممتلئ بسائل ويحتوي على قطعة من حديد بداخله. لم يحضروا معهم، للأسف

عينة منه لأفحصها. أسرّ إليَّ علي الجنيـدي أنه لا يحب البقاء في نجران، فأخبرته بأنني من جـانبي وبلا شك لا أشـاركه رأيه هذا. على الـرغم من أنها قـد تكون مكاناً غيـر مريح للحياة فـيه في الأيام التي سبـقت العصر السعـودي حين كانت الحروب القبلية أمـراً مستديماً، والتي حكى لنا الأمير عنهـا حكاية في أحد لقاءاته العامة والتي كان ثلاثة من شيوخ القبائل المعنية بالقصة ضمن الحضور.

أرسل الأمير لإحضـار بعض المأكولات الخفيفة وجلسنا كلنا حـول طبق كبير ممتلئ بالتـمر نمضي الوقت فـي الحديث عن أيام زمـان وأيام الحاضـر. طلب مني الأميـر أن أتأمله هو وسلطان وجابر وجـابر الآخر، كلنا نشارك بعـضنا في تناول الطعام من طبق واحـد، مشيـراً إلى أن هذا كان لا يحـدث إطلاقاً في الماضي! إذ كانوا حـينها كلهم أعـداء لبعضـهم البعض، يتطلعون لقـتل بعضـهم البعض ولا يتحركون حتى داخل مزارع نخيلهم دون حراسة.

لقد سئموا هذا النمط من الحياة، وقرروا ذات يوم، الدعوة إلى هدنة. اتفقوا على اللقاء معـاً في بقعة بعينها - كـانت سهل سعيد المقـابل لمخلاف- شريطة أن يحضـر كل واحد منهـم إلى مكان اللقاء ومـعه تابع واحـد فقط. اتفقـوا هكذا، حقيقة، غير أن لا أحد بين الثلاثة يثق تماماً في الإثنين الباقيين، وكان أن ذهب كل واحد منهم لمكان اللقـاء ومعه عـشرون تابعاً مـسلحاً، طالبين منهم الاختـباء بين الشجـيرات، حتى يستـغرق الرؤساء الستـة في النقاش، وحينها يقـفزون من بين الأشجار على كـل المجموعة المجتـمعة ووضع حد للنزاع القـائم وإلى الأبد بقتل المنافسين الآخرين لرئيسهم. وحدث هذا، تماماً كما خطط له ثلاثتهم يدفعهم عدم ثقتـهم المتبادلة في بعضـهم البعض، وحينما حـانت ساعة الصفـر، تحركت ثلاثة جيوش إلى الفـضاء المكشوف لبدء مـعركة لم ينج منها إلاَّ الرؤسـاء الثلاثة الذين

هربوا أحياء، وهم الذين نراهم الآن يتناولون التمر معنا من الطبق المشترك نفسه في تمام السلام والأمن الذي جلبناه لهم. وسأل الأمير ثلاثتهم إن لم يكن ذلك هو الحقيقة. فكانت إجابتهم إنها عين الحقيقة والحمد والشكر لله ثم لابن سعود.

وصل أخيراً اليوم الكبير، الرابع والعشرون من يوليو، الذي حددناه لمغادرة نجران إلى الأقاليم التي لم تستكشف بعد في الجنوب. كان الكل مشغولاً بالإعداد وتجهيز العفش للدرجة التي شغلتهم عن إيقاظي من النوم، حتى هدير جمال الأحمال لم يزعج نومي الخفيف في خيمتي المتنقلة فوق السطح. كانت الساعة تمام السابعة والنصف صباحاً حينما صحوت مع شعاع الشمس وقد ارتفعت بما فيه الكفاية لتضرب على حاجز السقف، ورحلت الجمال بالعفش عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً. تناولت الإفطار في صفاء للذهن مع الأمير ومع مرشديّ الرئيسين، الذين انطلقوا على ظهور جمال الركوب مباشرة بعد الإفطار حيث تركوني ومجموعة صغيرة لنتبعهم على ظهر السيارتين. كانت الساعة الثانية ظهراً حينما تحركنا من عند قصر أبي السعود، الذي لن نراه ثانية إلا في الثاني عشر من اكتوبر، بعد عودتنا من غياب سيستمر ٨٠ يوماً عامرة بالتجوال المثمر في الصحراء والذي قد نشرت أحداثه منذ وقت بعيد في صحفات «بنات سبأ».